

# رسالة صاحب الجلالة الملك محمد السادس إلى المشاركين في الدورة 23 للجنة التراث العالمي

مراكش، 20 شعبان 1420هـ الموافق 29 نونبر 1999م

حضرات السيدات والسادة،

يسعد المملكة المغربية أن تستقبلكم في إحدى عواصمها التاريخية الكبيرة مدينة مراكش التي تجمع على أرضها المضيافة تراثا زاخرا وتاريخا حافلا يحكيان في كل درب من دروبها المكانة المرموقة التي استطاعت هذه الحاضرة أن تتبوأها بين كبريات المدن العالمية وأعرافها.

وإنها لمناسبة سعيدة هذه التي نتاح لنا ونحن في بداية عهدنا لنشارككم طموحاتكم وانشغالاتكم حيال الموروث الحضاري الذي راكمته الإنسانية جمعا كتعبير عن عبقريتها وعن مثلتها وعن جدارتها بالتكريم الإلهي الذي جعل الإنسان من أفضل المخلوقات وأنبلها.

لقد مر اليوم ما يناهز السبعة والعشرين سنة على اتفاقية التراث العالمي التي صادقت عليها الجمعية العامة لليونسكو سنة 1972 وتحقق بفضلها تقدم كبير في مجالات التعامل مع التراث الثقافي والطبيعي، حيث باتت الدول الموقعة على مسودتها تتناول قضاياها انطلاقا من مفهوم واحد قوامه أن المحافظة على التراث المحلي والوطني وصيانيته إنما هما محافظة على إرث إنساني يلتقي عنده باعتراف متبادل جميع أبناء البشرية.

وهذا الشعور الدولي والاهتمام المتزايد والحرص على تسجيل المواقع الطبيعية والأثرية الهامة والمدن والمباني التاريخية الفريدة ضمن لائحة التراث العالمي، هو الضمان لمستقبل زاهر لفائدة الحضارة الإنسانية على اختلاف أوجهها وتعدد تجلياتها وستكون للأجيال القادمة فرص عديدة للاستقاء من قدراتها ما تستطيع أن تتفاعل به مع ما أثمرته الأجيال السالفة في جميع مناحي الحياة معتمدة في ذلك على ما وصلت إليه الاكتشافات التقنية والعلمية الحديثة.

إن هذا الاجتماع الذي يعد آخر تظاهرة من نوعها في هذا القرن، سيسحضر لا محالة الشروط الجديدة التي تميز الاتصال الإنساني ومعرفة الناس ببعضهم في ظل الثورة الإعلامية التي يشهدها العالم والتي تجعل تراث كوكبنا ملكا مشتركا تتمكن من التعرف عليه والاقتراب منه والاطلاع على ما يعرفه من تطور وما يتهدده من مخاطر. وفي ظل هذه المعرفة الجديدة بالآخر، فإن التراث يتخذ بعدا عميقا بما يمنحه من فرص لفهم الخلفيات الثقافية والتاريخية للإنسانية جمعا والانطلاق منها للدفاع عن قيم التعايش والتسامح. كما أن هذه المعرفة تحملنا مسؤوليات جديدة وجسيمة. ذلك أننا اليوم مسؤولون جميعا عن حماية هذا التراث بكل أشكاله والحفاظ عليه للأجيال المقبلة. ولا يمكن أن ندعي أننا لم نكن على علم بما يخترنه العالم من تعدد حضاري وما يتهدد هذا التعدد من مخاطر بفعل الحروب والفقر والامية.

وانطلاقا من الشعور بجسامة هذه المسؤولية فقد بات من الضروري تنسيق الجهود على المستوى الدولي لإنقاذ تراثنا الحضاري حيثما كان ذلك أن ما يفقده شعب من الشعوب إنما تفقده الإنسانية جمعا، ومن المؤكد أن عجز عدد كبير من دول الجنوب على حماية تراثها الوطني سيفقد الإنسانية كنوزا عظيمة من تاريخها وجانبا أساسيا من جوانب تعددها.

وفي هذا السياق لا بد من توجيه تحية تقدير للجهود التي تبذلها منظمة اليونسكو سواء على مستوى تحسيس الرأي العام الدولي بدقة هذا الوضع، أو على مستوى ما تقدمه من خدمات جلى لصالح المشاريع الأساسية في مجال حماية التراث.

على أننا لا بد أن نؤكد مرة أخرى على ضرورة اعتماد رؤية ديناميكية بخصوص هذه الحماية قوامها إدماج تراثنا في مشاريع التنمية وليس فقط تحنيطه في إطار رؤية تقليدية للماضي. وهو ما يستدعي أيضا ربط جسور قوية بين هذا الموروث الحضاري وبين إبداع الإنسان في الزمن الحاضر لأن تراث الغد هو أيضا ما نبتكره اليوم. فلا مناص إذن من جعل التراث فضاء مشتركا لحوار الحضارات وحوار الأجيال والأزمنة.

حضرات السيدات والسادة،

غير خاف عليكم وأنتم من صفوة المختصين وكبار الخبراء والدارسين ومن المسؤولين التقنيين الساهرين على تدبير شؤون التراث في أوطانكم، أن عراقا الأمم وتجذرها يعودان لما كان للأسلاف من حضور في مسرح التاريخ وما خلفوه من آثار عمرانية وإبداعات فكرية واختراعات علمية وإنجازات حضارية. وإذ لا نشك أبدا في أن جميع أبناء البشر أينما وجدوا قد ساهموا بقسط أو بأخر في إرساء صرح هذه الحضارة الإنسانية وفي تدعيم أسسها فإننا لا نشك كذلك في أن نضج الشعوب لا يقاس إلا بمستوى شعورها وحسها بأهمية تراثها وبالغاية التي آلت على نفسها أن تخصصها له حفظا وصيانة وتجديدا.

ووعيا من المغرب بهذا الأمر، فقد سعى منذ استقلاله إلى سن سياسة نشيطة في مجال الحفاظ على المآثر لم يحذ فيها قط حذو بعض الدول ممن سبقوه في هذا المجال بجلب التقنيين والتقنيين من الخارج دون كبير عناء، وإنما أثر على نفسه كلما توفرت المهارات أن يتولى أمور صيانة تراثه أولا بنوه من ذوى الخبرة والمعرفة وأن يتم في أو راسه تلقين الصنعة وصقل المواهب وتأهيل السواعد. هكذا كانت المبادرة الأولى لوالدنا المنعم جلالة الملك الحسن الثاني، قدس الله روحه، عندما قرر، رحمه الله، ترميم القصر الملكي بفاس الذي كانت آثار الإهمال والبلية قد أصابته إبان عهد الحماية فجمع ما توفر آنذاك من الصناعات والحرفيين وجعل بجانبهم وتحت إمرتهم ألفي شاب للتعلم والتدريب على فنون البناء التقليدي والزخرفة الأصلية، وبذلك لم ينقذ المغرب معلمة من معالمه التاريخية فحسب، وإنما أهل كذلك وفي نفس الآن مجموعة كبيرة من الصناعات الشباب هي تلك التي كان لها أن تساهم في إنجاز المعلمتين الخالدتين: ضريح جدنا المغفور له جلالة الملك محمد الخامس ومسجد الحسن الثاني، اللذين جمعا في عمارتهما ما تفرق في غيرهما من أساليب البناء والزخرفة الأصليين.

ومع هذا لم يغض المغرب الطرف عما لم يكن يمتلكه من تقنيات حديثة ومناهج علمية لا غنى عنها اليوم في معالجة قضايا التراث دراسة وترميمها، كما لم يغفل التعاون والتعامل مع البلدان الشقيقة والصديقة أخذًا وعطاء. هكذا عمدت بلادنا إلى تأهيل أطرها وتكوينها في دروب متعددة من المعرفة المرتبطة بالميدان كالأركيولوجيا والأنثروبولوجيا والإثنولوجيا وعلوم الإحاثة وتاريخ الفن والفيزياء والكيمياء المطبقين في التراث وغيره، ليتوفر لديها اليوم، والحمد لله، من هذه الأطر ما يساعد على مواجهة المتطلبات في الاستكشاف والبحث كما في المعالجة والصيانة والترميم.

وكلما دعت الضرورة لذلك، لم يتأخر المغرب في الاستعانة بالخبرات التقنية العالية المتوفرة لدى غيره، كما أنه لم يتردد في الاستجابة لطلبات المساهمة والتعاون الواردة عليه من الدول الشقيقة والصديقة. فكما أن علماء وتقنيين أجانب عملوا ويعملون إلى جانب علمائنا وتقنيينا، فإن زمرة من خيرة أطرنا ومجموعة من أمهر فنائنا تساهم في إنقاذ مآثر من بلدان شقيقة وصديقة بنفس الحماس والإخلاص اللذين يطبعان أعمالهم داخل الوطن.

حضرات السيدات والسادة،

إنه ليسعدنا أن نسجل اهتمامكم المتزايد بقضايا التراث الطبيعي وبقضايا التراث المنقول بعدما كان الاهتمام منصبا خصوصا على الجوانب العمرانية والمعمارية والأثرية. فأنتم بهذا التوجه تعودون بلجنتكم الموقرة إلى توازن كان لابد منه لأن الإنسان يعيش في بيئة له معها تفاعلات وفي مجتمعات لا ينقسم عنها ما تجمع فيها من عادات. ومعنى هذا أن عامل التأثير والتأثير قوي الحضور فيما مر من عصور ولا يجب أن يصل بنا الأمر عند مستهل القرن الجديد إلى إغفال هذا الحضور في حياتنا البشرية.

إن التراث الطبيعي، إضافة إلى كونه مصدرا من مصادر فهم التاريخ الجيولوجي والبيئي لكرتنا الأرضية وإلى كونه مختبرا فريدا لشتى علوم الطبيعة، فإنه يعتبر كذلك عنصر توازن بين الإنسان وبيئته وعاملا من عوامل الحفاظ على تنوع الأصناف والأجناس الحية المشكلة للطبيعة «بيو ديفيرسيتي» والتي إن تقلصت أو أصابها نقصان هام فستخل بذلك التوازن وربما تؤدي إلى تقليص فرص استمرار الحياة الإنسانية على سطح كوكبنا الأرضي.

أما التراث المنقول، فإنه لا يخفى عليكم وزنه القوي وحضوره الكبير في بعض الدول بل وفي قارات بكاملها كما هو الشأن في قارتنا الإفريقية حيث شكل التراث الشفاهي مصدر تثقيف وتأهيل ومنبع توجيه وتأطير. هكذا كان لمجتمعات عديدة أن تبني صرح حضاراتها معتمدة عما تنتقله الأجيال بقوة الكلمة وبفعل الموعظة وحسن السلوك وبحكمة السير والحكاية والأمثال. فساهمت بذلك في إغناء الحضارة الإنسانية إغناء لا يستهان به مما يحتم علينا إيلاء هذا التراث ورموزه الأولوية من اهتماماتنا لأنه مهدد بالانقراض أكثر من غيره ولأنه بمثابة ثروة لا تعوض.

ولعل المبادرة التي أقدمت عليها اليونسكو بتسجيلها لساحة جامع الفناء بمرآكش ضمن قائمة تراث الإنسانية - وهي أول مبادرة من نوعها - علاوة على كونها تشرف المغرب، فإنها تعتبر مبادرة حميدة وجريئة فتحت الباب على مصراعيه تجاه هذا النوع من التراث وسيكون لها، إن شاء الله، وقع كبير وتأثير واسع، إذ سنتبعلها محالة تسجيلات أخرى تضمن تكثيف جهود المجموعة الدولية من أجل صيانة هذا الصنف الهام من الموروث.

حضرات السيدات والسادة،

بقي لنا أن نشير إلى أن سعيتكم وراء جعل قائمة التراث العالمي سجلا متوازنا من حيث تمثيلية الدول والجهات فيه ومن حيث تسجيل المواقع الثقافية والطبيعية على حد سواء، سعي مشكور وقصد محمود، علينا أن نعي بعده وأن نتصور وقعه. ولا شك في أن السنين المقبلة ستشهد تطورات هامة في هذا الباب بفضل تمثين الروابط وترسيخ الوعي وصدق النوايا.

حضرات السيدات والسادة،

إننا لسعيدون بأن يحضر افتتاح أشغال دورتكم هذه السيد كويتشيرو ماتسورا، المدير العام الجديد لليونسكو، الذي كان طيلة العام الذي نودعه رئيسا للجنةكم هذه، حيث أبان خلال مدة رئاسته عن اطلاع واسع وكفاءة عالية وإدراك كبير لشؤون التراث العالمي؛ مما أهله لإدارة اللجنة بكثير من الحزم والذكاء فضلا عن الحنكة الدبلوماسية التي توفرت لديه بحكم تكوينه وطول تجربته في هذا الميدان والتي ساعدت ولا شك في تسهيل مأموريته.

وإننا إذ نحبيه ونجدد له التهنية على الثقة التي فاز بها لدى الدول الأعضاء التي صوتت عليه ليتولى شؤون اليونسكو، لو اتقون في أنه سيكون خير خلف لخير سلف، وأنه سيخطو بمنظمتنا خطوات جادة إلى الأمام معولا في ذلك على تفهمنا جميعا ومساعدتنا له.

وإذ نرحب بكم ثانية في أرض المغرب وبين ظهراي أهل مراکش الذين نحبيهم في هذا المنبر تحية خاصة، فإننا نبارك أعمال لجنةكم التي لا نشك في أنها ستكون إن شاء الله مثمرة ونافعة والله الموفق.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.